قضايا وإشكالات التصنيف الأجناسي في خطاب فيروزرشام النقدي
ط.د. حسين نفطي. جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة:

ثمة مداخل كثيرة لدراسة الأدب ومقاربته نقديا، تَصف وتُصنف أجناسه، تفسر وتحلل مضامينه وتسبر أغواره وأنساقه، فبدون الخطاب النقدي لا يمكن للأدب أن يتطور وتُضبط آلياته، لأنه هو الذي يُقَومُه ويكشف نقائصه وسلبياته ويعمل على تحقيق الصورة المثالية والنموذجية له، بتحديد الشروط والأسس والقوانين لظواهره الإبداعية التعبيرية بمختلف أجناسه، وليس مجرد إطلاق أحكام نقدية فقط.

والخطاب النقدي ينطلق كل واحد منه من واقع نظرية أدبية أو نقدية لها إطارها الفكري العام سمتها الاختصار والتقنين، فلكل باحث أو ناقد أو مؤرخ للأدب منطلقاته المنهجية النظرية يلتزم بها ويستند إليها، تمُده بالفلسفة التي ينبغي أن يدور خطابه النقدي في كونها ولا يجاوزها إلى أطر نظرية أخرى، فالنظريات غالبا ما تحد الحقل المعرفي ولا توسعه، لتنضبط الممارسة والدراسة وكي يحقق الناقد غايته من مقاربته للأدب، ومحاولة إقامة بناء متكامل للإجابة على التساؤلات التي ينطلق منها.

ولعل من أهم التساؤلات الأولية التي يجب أن ينطلق منها أي ناقد أو دارس هي تحديد طبيعة الأعمال الأدبية وخصوصية عناصرها والتقنيات التي تتأسس عليها كتابتها، فالمجالات التي يهتم بها الخطاب النقدي عديدة، ومن بين أهم ركائزه "نظرية الأجناس الأدبية" التي تقوم على "مجموعة من الآراء والأفكار القوية والمتسقة والعميقة والمترابطة، والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة، والتي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته، وهي تدرس الظاهرة الأدبية بعامة من هذه الزوايا في سبيل

استنباط وتأصيل مفاهيم عامة، تبين حقيقة الأدب وآثاره"[1]، وما يتجلى فيها من مباحث التنقيب عن أسس تصنيف نصوصه وفق "معايير تفيد في الحكم على توافق عمل ما مع قاعدته، أو على الأصح مع مجموعة من القواعد. ضمن مثل هذا التصور الوصفي –المعياري، تتغلب مسألة التطابق أو الاختلاف بين نص ما ومجموعة من القواعد، على مسألة العلاقات بين النصوص والجنس والأجناس"[2].

إنها تحتوي على مجال واسع من المفاهيم والمبادئ تعمل على إرساء قواعد جامعة وفق المتغيرات التي تحكم النص الأدبي، بالأخذ بعين الاعتبار أن ليس له شكل تعبير خاصة ، بل متعدد الأشكال يتصف به كل نص يجعله مختلفا عن غير، وهو ما يطلق عليه النقاد الأجناس أو الأنواع الأدبية. وهي من أهم الدراسات والمقاربات في مجال "نظرية الأدب" و"الشعرية" ناهيك أنها "قديمة قدم الأدب ذاته، موغلة في الزمن إيغال البحث في طبيعة (الأدبي)"[3]، برصد خصائص الأدب وآثاره، وهذا ما يميزها عن غيرها من مجالات الدراسة الأدبية النقدية الأخرى، ويعتبر النقد الأدبي وتاريخ الأدب أكثر الحقول تداخلا معها لتعدد مجالات بحثها.

فالخطاب النقدي الأدبي المغاربي لم يكن بعيد الإفادة من مباحثها في سبيل مقاربة النصوص على اختلاف طرق النظر إليها. فالحديث عن مباحث "نظرية الأجناس الأدبية" يعني الحديث عن الرؤية التي ترسم توجه الأدب بكل أبعاده وتصنيفاته التجنيسية، فمن خلالها نستمد المقولات والمصطلحات والإجراءات المختلفة التي تتجلى في مناهج والخطاب النقدي، للبرهنة على توافق القوانين الداخلية والخارجية لنقول على أن هذا العمل ينتمي إلى الأدب أولا، ثم تحديد هويته التجنيسية ثانيا. وثالثا لا يمكن مقاربة النصوص منهجيا إلا بعد الكشف وتحديد هويتها الأدبية. خاصة وأن جل النصوص هي التي تفرض المنهج النقدي الذي باستطاعته سبر خفاياها بإدراك مكامن الإبداع والجمال بها وبتحليل وتفسير تراكيبها وتأويلها وكشف قوانين النصوص، كما تمكّن المتلقي من تحديد آفاق توقعاته من الإبداعات الأدبية.

---

[1]- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، لبنان، ، 1414- 1993، ص 12

[2]- جان ماري شيفر، ما الجنس الأدبي؟، ترجمة: غسان السيد، إتحاد كتاب العرب، د.ط، دمشق، سوريا، 1997، ص 30.

[3] - إبراهيم خليل، في نظرية الأدب وعلم النص –بحوث وقراءات-، منشورات الاختلاف، ط1، 2010، ص 13

ومن بين أبرز الأقلام النقدية في الخطاب النقدي العربي اهتماما بها نجد الناقدة الجزائرية "فيروز رشام"، التي سجلت بدراستها الموسومة "شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي-دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-" بصمة راقية في مجال الممارسة النقدية العربية عامة والمغاربية خاصة، لأهم وأقدم القضايا الإشكالية في الشعرية المطروحة منذ أرسطو وأستاذه أفلاطون، والتي مازال الجدل قائما والنقاش محتدما فيها إلى يومنا هذا، وذلك لأسباب ساهت في عمق قضية التصنيف الأجناسي وجعلها تثير إشكالات نظرية ومعرفية كثيرة جعلتها من أخصب المسائل التي فرضت نفسها في الفكر النقدي، أهمها تحولات الأدب وأشكاله وتفاعل الأجناس الأدبية وانصهارها فيما بينها، وعدم اتفاق النقاد على ضبط أسس وتحديد معايير تصنيف نصوص الأدب، ناهيك عن إشكالية اضطراب مصطلحاتها -نظرية الأجناس الأدبية- ومفاهيمها بسبب تداخلها من جهة وغموضها من جهة أخرى، خاصة بين المصطلحين (الجنس والنوع) اللذين يعتبران الأكثر تداولا في الخطاب النقدي التجنيسي العربي.

وإذا ما تعمقنا فيها أكثر تظهر إشكالات كثيرة تفرزها هذه النظرية، ولعل أبرزها مسألة "أصل الأنواع الأدبية وحيثيات نشأتها، التي تعد من أعقد المسائل المطروحة في هذه النظرية دون أن تصل لجواب أو تفسير ولو بشكل جزئي من بين الأسئلة الأكثر طرحا: هل ينشأ النوع دفعة واحدة؟، ومن يخلق النوع ويبتكره المبدع أو الجماعة؟، لماذا تظهر أجناس وأنواع في ثقافة دون أخرى وفي فترة دون أخرى؟، لماذا لا تبقى الأنواع على حالها كما نشأت أول مرة؟، ما هي الأسباب التي تقود لزوال وانتشار نوع من الأنواع؟، هل اختراق النوع هو إبداع فيه أم تشويه له؟، كل هذه التساؤلات وأخرى تأرق البحث الأجناسي وتشغله بشدة[1]، كل هذه التساؤلات وغيرها تناولتها الناقدة "فيروز رشام" في مدخل دراستها النقدية.

وانطلاقا من هذه المعطيات ارتأينا عنونة البحث: "قضايا وإشكالات التصنيف الأجناسي في خطاب فيروز رشام النقدي"، وبناء على أهم القضايا التي همّت الناقدة بمقاربتها في مدخل كتابها، والتي تعد من أهم مباحث "نظرية الأجناس الأدبية" عامة، رشحنا هذه الفكرة محور بحث لهذه الورقة، و ذلك بطرح إشكاليتين رئيسيتين: الأولى:

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-، دار فضاءات للنشر والتوزيع، ط1، عمان، 2017، ص 312

ما تصور فيروز رشام لنظرية التصنيف الأجناسي؟، الثانية: ما الآلية التي تتم بها عملية تصنيف أجناس الأدب وتأطير حدودها؟.

وندعّم هاتين الإشكاليتين ببعض التساؤلات الفرعية لإثراء دراستنا والمتمثلة في: ما الجنس الأدبي؟، وما علاقته بالأدب في تصور فيروز رشام؟، وكيف يمكن لمبدأ التصنيف الأجناسي أن يميز بين النصوص؟، وأين تكمن إشكالات التصنيف الأجناسي في الخطاب النقدي؟.

ومن الأهداف التي تتوخاها هذه الدراسة بيان جهود الناقدة الجزائرية "فيروز رشام" التي تعد من الأقلام القليلة والمحدودة المشتغلة على "نظرية الأجناس الأدبية" في الخطاب النقدي المغاربي، وكشف تصورها لفكرة تجنيس الأدب في كتابها، واستنباط الأسس التي يقوم عليها مبدأ التصنيف الأجناسي في خطابها النقدي، إلى جانب إدراك العلاقة بين النصوص الإبداعية والجنس الأدبي الذي يحدد هوية انتمائه.

2. تصور فيروزرشام لنظرية الأجناس الأدبية:

مسألة "الأجناس الأدبية" أو "تجنيس الأدب" أو "التصنيف الأجناسي" وغيرها، كتلك التي تجعل مكان الأجناس مصطلح (الأنواع أو الفنون)، كلها تسميات لموضوع يجمع قضايا النقد الأدبي القديم والحديث، التي تُرد إليها مباحث تاريخ الأدب وأشكال تحولاته ، ومنها يمكن أن ننفذ إلى قضايا وتحليل الخطاب الأدبي في مختلف مستوياته، وما يجب إدراكه عند الهمّ إلى دراسة ومقاربة "نظرية الأجناس الأدبية" الانطلاق من مبدأ أنها غير قابلة للثبات شأنها في ذلك شأن الأدب، فمثل هذه الدراسات خاصة ما يتعلق بنظرية الأجناس الأدبية "يتجدد باستمرار، فمن الطبيعي أن لا تستقر مقولات الأجناس الأدبية على حال، وأن يستمر النقاش فيها طالما أن الأدب الذي تشتغل عليه في تحول دائم، ولا يستقر حينا حتى يتحول من جديد، ما يعني أن البحث فيه لا ينتهي ويبقى دائما مفتوح الآفاق"[1].

لقد عرفت في مسار تطورها التاريخي "توجهات ومقترحات عديدة ومختلفة، سواء في قضية التصنيف أو في سواها من القضايا، كما عرفت تحولات وتغيرات كثيرة من زمن إلى آخر، لذا يجب الحذر من الخلط بين النظرية "الكلاسيكية" للنوع والنظرية "الحديثة". فالكلاسيكية تنظيمية إطرادية، تؤمن بنقاء النوع، وتميزه طبيعةً وقيمةً،

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 12

وتؤمن حتى بأنه يجب أن يبقى منفصلا، ولا يمتزج بأنواع أخرى. أما النظرية الحديثة فهي وصفية بكل وضوح. وهي على عكس سابقتها، تؤمن بإمكانية مزج الأنواع"[1]، وبالتالي ما مسألة "التصنيف الأجناسي" أو "نظرية الأجناس الأدبية" وما يشير إليه مسماها إلا "مبدأ تنظيمي: فهي لا تصنف الأدب وتاريخه بحسب الزمان والمكان (المرحلة أو اللغة القومية)، وإنما بحسب أنماط أدبية نوعية للبنية والتنظيم"[2]، ومقولة الجنس الأدبي أصل من أصولها تعتمده في تجاوز تباين الآثار إلى إدراك الأبنية التي تحكم النصوص وأضرب الكتابة وأساليبها.

فما نستقيه من هذا التعريف الموجز أنه "ثمة دعوتين متناقضتين وهما الدعوة لإلغاء الأنواع، والدعوة للإبقاء على نقائها. وقد احتدم الصراع بينهما في القرن التاسع عشر ممثلتين في الكلاسيكية المحافظة على الأنواع، والداعية إلى عدم الخروج عنها، والرومانسية الرافضة لأي تقعيد مسبق للكتابة، والداعية بشكل صريح إلى إلغاء الحدود بين الأنواع. وقد ازداد الحديث عن تداخل الأنواع خاصة بعدما دعت معظم النظريات الأدبية الحديثة إلى طمس الحدود بين الشعر والنثر، حتى وصل الأمر إلى أن الرواية المعاصرة أصبحت تستدعي قراءة شعرية"[3]. بمعنى أن "نظرية الأجناس الأدبية" مرت بمرحلتين أساسيتين مرحلة بلغت ذروتها بالكلاسيكية الجديدة وسموا أتباعها (الأرسطوطاليين) بدعوتهم فصل الأجناس عن بعضها وبحثها بوصفها قارات منفصلة، ومرحلة ظهرت حديثا وهي وصفية لا تحدد عدد الأجناس الأدبية تحديدا فاصلا، كما لا توصي بقواعد نهائية وتدعو إلى إمكانية المزج بين الأجناس لتوليد أجناس جديدة.

وبهذا ، أثيرت قضية تصنيف الأدب بحسب أجناس ومسألة نقاء الجنس منذ قرون، وظهرت ضروب من التصنيف تختلف أسسها ومنطقاتها ، وتتباين مقاييسها ونتائجها خاصة في العصر الحديث، الذي عدت فيه قضية "تصنيف الأجناس والأنواع الأدبية من أعقد التصنيفات وقد ظهرت محاولات كثيرة في ذلك بعد محاولة أرسطو التي تمثل أقدم ما وصل إلينا في هذا المجال"[4].

---

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 72

[2]- المرجع السابق، ص 72

[3]- ينظر: المرجع السابق، ص 72

[4]- المرجع السابق، ص 69.

ويعود ذلك لأسباب بيّنتها الناقدة في خطابها النقدي "أهمها تداخل أجناس الأدب مع بعضها البعض، خاصة بعد التجارب الجمالية التي حصلت بين الشعر والنثر في السنوات الأخيرة، والتي تقلصت من خلالها المسافة بين الشعر وجنس النثر حتى أصبح الشعر نثرا والنثر شعرا"[1]، وما ذلك ناتج في تصورها أن النقد العربي "استعصى عليه ضبط ماهية كل من الشعر والنثر، وبالتالي تحديد ماهية الأدب، حيث صارت الحدود بين الشعر والنثر أقل بروزا خاصة بعد أن تم التخلي عن العنصر الأقدم في بناء الشعر، أي الوزن والقافية، ما جعل النقاد يبحثون عن فروق أخرى تميز بينهما، تكون مستقاة أساسا من وظيفتهما"[2].

وتقول موضحة رأيها فيما يخص إشكالات النقد العربي في هذا الجانب: "... ورغم كثرة الدراسات حول الأدب العربي المعاصر، شعره ونثره، إلا أن الاشتغال على المسألة الأجناسية بقي محدودا، مما جعلها غير قادرة على الكشف عن التغيرات العميقة والتحولات الجوهرية التي عرفها الأدب. ومن ثم فقد أصبح البحث في نظرية الأجناس الأدبية اليوم أكثر من ضرورة، لقدرته على الكشف عن العوالم الخفية في بناء الأدب وتحولاته. والنقد العربي المعاصر يبدو بعيدا جدا عن البحث الأجناسي مقارنة بما وصل إليه النقد الغربي في هذا المجال، ومتأخرا تأخرا كبيرا عن الدراسات العلمية المتعلقة به، بسبب قلة البحوث المنجزة بهذا الخصوص"[3]. لأن ما نجده في النقد الغربي هو الاهتمام المتزايد بهذه القضية.

وتقول فيما يخص الدراسات العربية التي اشتغلت بهذه القضية التي تمثلت في بعض المحاولات المحتشمة والمقالات الموجزة،معلقة : " أما الجهود القليلة التي اهتمت بدراسة وتحليل هذه المسألة فيغلب عليها التشتت المعرفي، ما حال دون وجود نظرية أجناسية واضحة ومتكاملة، تكون مستقاة أساسا من الأدب العربي، خاصة إذا علمنا أن الأنواع الأدبية الموجودة فيه هي غير تلك الأنواع التي تأسست عليها نظرية الأجناس الأدبية عند الغرب... ومع كثرة الأوصاف التي تقال اليوم عن الأجناس الأدبية، بأنها تتداخل وتتلاشى وتسير نحو الزوال وغير ذلك من الأحكام، فإن الأمر يتطلب تنمية

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 07

[2]- ينظر: المرجع السابق، ص 35

[3]- ينظر: المرجع السابق، ص 07

البحث وتعميقه في بنية الأجناس والأنواع، والنظر في تاريخها وأشكال تطورها وعلاقتها بما يحيط بها من معطيات فنية وفكرية وحتى اجتماعية، من خلال دراسات أجناسية تطبيقية تتعامل مباشرة مع النصوص"[1].

وإذا ما حاولنا تقصي منهجية الناقدة في دراستها لقضية "نظرية الأجناس الأدبية" أو "التصنيف الأجناسي" وتطبيقها على أعمال الأديب "نزار قباني" نجد أنها ركزت على أهم إشكالاتها وذلك بافتتاح بحثها "بمدخل أجناسي يعرض ويناقش المفاهيم والإشكالات الكبرى في نظرية الأجناس الأدبية، باعتبار أن الفهم الصحيح لمبادئ النظرية والاستيعاب العميق لها، يعد خطوة أولى وأساسية يجب البدء بها قبل التعامل التطبيقي مع النصوص. ونظرا لتشابك القضايا واتساعها وتداخلها مع بعضها البعض. ولأنه موضوع يعاني من نقص في الدراسات فهو بحاجة إلى المزيد من التفصيل والتحليل لسد بعض هذه النقص، وهو ما حاولت المساهمة فيه من خلال تقديم عرض مفصل يشمل المسائل الكبرى لقضية الأجناس الأدبية ومناقشة مفاهيمها، باعتبار أن الفهم الصحيح لمبادئ النظرية والاستيعاب العميق لها، يعد خطوة أولى وأساسية يجب البدء بها قبل التعامل التطبيقي مع النصوص "[2].

نجد في المدخل محورين أساسيين الأول يتحدث عن المفاهيم الجوهوية المتعلقة بالكلمات المفتاحية لهذه القضية وهي الجنس والأدب والعلاقة بينهما، والثاني يقدم عرضا تاريخيا لنظرية الأجناس الأدبية في النقد الغربي ومناقشة لأهم القضايا والإشكالات فيها، كأصل الأجناس وأسس تصنيفها، ووضع هذه النظرية في النقد العربي. فجاء المدخل تصورا عاما لأفكار الناقدة مع الاستعانة بما قاله بعض نقاد الغرب والعرب، بحيث اعتمدت فيما يخص "المراجع النظرية التي وفرت لها الإجراءات المنهجية والمفاهيم الضرويرية للبحث في قضية الأجناس الأدبية وما اتصل بها، فتمثلت أساسا في كتب "تزفيتان تودوروف" و"جيرار جينيت"، باعتبارهما من أهم الباحثين المعاصرين الذي كتبوا في الموضوع بأصالة وعمق. في حين تنوعت المراجع العربية، على كتب "رشيد يحياوي" التي كانت أكثرها إفادة لبحثها لما فيها من تحليل وتفصيل يقارب النظرية من

[1]- ينظر: فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 07- 08

[2]- المرجع السابق، ص 09

النقد العربي"[1]. وقد تتبعت الباحثة "نظرية الأجناس الأدبية" منذ بواكرها الأولى عند أرسطو مع التركيز على فترتي الحداثة وما بعدها.

1.2 ضبط المفاهيم (الجنس الأدبي –الأدب- العلاقة بينهما) في تصور فيروزرشام:

يعرف "الجنس الأدبي" أنه قالب فني ذو خصائص يتوحد بها كل النصوص في جنس أدبي واحد بما يميزه عن غيره، كما أنه شكل أدبي ملتزم بقواعد وأعراف يقبل عليها المؤلف ويتبع مجموعة فرضياته محددا ومكيفا كتابته في حقلها النوعي، أي أن الجنس الأدبي له قانونه الخاص الذي يحكمه بعيدا عن اللغة المكتوب بها أو العصر والمكان الذي أنشأ فيه، وفي مطلقه يوحي إلى أساس تنظيمي يصنف الأعمال الأدبية، وما يجعل من العمل الأدبي جنسا أدبيا هو ذلك التنظيم والبنية الداخلية اللذان يحددان إطار الناتج الأدبي وهذا من أهم الأسس التي رسخت لمفهوم النظرية للأجناس الأدبية.

كما أن مقولة "الجنس الأدبي" تسمح بالجمع بين عدد من النصوص حسب معايير مختلفة وترسي في الوقت نفسه قواعد لقراءة هذه النصوص وتأويلها. إلا أنه ظل موضع نقاش في المشهد النقدي المعاصر من طرف النقاد الذي اشتغلوا على هذه القضية.

وكما أشرنا إلى أن قضية الأجناس الأدبية شغلت الإرث النقدي العالمي ، وقد تطرقت الناقدة في مدخل كتابها إلى مفاهيم بعض النقاد الغرب والعرب القدامى والمعاصرين الذين لهم نظرة مختلفة نوعا ما، بحيث "كشف تاريخ الأجناس الأدبية عن تعقيد واضطراب بالغين في المفهوم والمصطلح، فهي تارة أنواع، وتارة أجناس، وتارة صيغ، ونماذج، وأصناف، وأشكال، وأنماط.. ولأن هذه المصطلحات لا يمكن أن تكون كلها مرادفات لمفهوم واحد، فإن هذا التعدد والاختلاف قد تسبب فعلا في تشويش المفهوم كما المصطلح"[2]، وفي موضع آخر تؤكد هذه الإشكالية قائلة: "يضعنا مفهوم الجنس الأدبي في متاهة طويلة ومعقدة لا نهاية لها لما فيه من اضطرابات دلالية واصطلاحية بحيث يتداخل وبشكل كبير جدا بما يسمى النوع والنمط أو حتى الصيغة وصنف مما جعله مفهوما غامضا إن لم نقل مشكوكا فيه. وتفاديا لمزيد من التشويش

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 12

[2]- المرجع السابق، ص 26

والتعقيد، سنفصل، أولا، بين المفهوم الغربي والمفهوم العربي للمصطلح وثانيا سنورد المقابل الأجنبي لكل مصطلح أجناسي، لتكون محاولتنا لضبط هذا المفهوم سليمة ما أمكن، فالتشويش الذي أضافه تعدد الترجمات واختلافها زاد الأمر تعقيدا"[1].

وهذا يؤكد أنه لا يوجد مفهوم قار لمصطلح "الجنس الأدبي". خاصة وأنه "حظي مفهوم النوع باهتمام كبير منذ القدم، باعتبار الأدب يتمايز إلى أجناس وأنواع مختلفة، ولم يوجد أبدًا أدب بدون أجناس، وقد عرف هذا المفهوم تغيرا ملحوظا في القرن التاسع عشر مع ظهور التيار الرومانسي الذي دعا لاختراق قواعد الأجناس والأنواع. ومن ثمة بدأت ظاهرة أخرى في البروز، وهي ما يسمى بتلاشي الأجناس وتداخلها. وهو ما خلط الأوراق من جديد في قضية تصنيف الأجناس والأنواع"[2]. ما جعل تعدد مفاهيم مصطلح الجنس الأدبي تختلف " باختلاف النقاد، وزوايا التعريف سواء شكلية، أو أنطولوجية، أو تاريخية، أو اجتماعية، وإن كان معظم هذه التعريفات تنظر إلى الجنس الأدبي كوسيلة لتصنيف النصوص أكثر من كونه وسيلة لتفسيرها، وهناك من النقاد من يعتقد أن مصطلح (جنس) عصي على التعريف مثل فولر"[3].

1.1.2 مقاربة لمصطلح الجنس الأدبي في خطاب فيروز رشام النقدي: التقاطع والالتباس

لا شك أن الوعي النقدي التي تأسست عليها نظرية الأجناس الأدبية يعود إلى "أرسطو" بحيث أن جل الدراسات في هذا الشأن تجمع أن هذه النظرية ضاربة بجذورها في التاريخ، وما هذا إلا إقرار بأهمية مقولة "الجنس الأدبي" وضرورتها، وذلك بمساهمة "أرسطو" وأثره "في تشكيل الخطاب النقدي الأجناسي في العالم كله، فقد جاء في مقدمة فن الشعر الذي ظهرت فيه سمات التجنيس الأولى"[4]. إذ تأثر النقاد العرب القدامى بكتاب "أرسطو" "فن الشعر" وتصوراته اتجاه نظرية الأجناس وظلت مسألة مصطلح الجنس موضع نقاش من طرف النقاد على مختلف العصور، أضف إلى هذا وجود

---

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 24

[2]- المرجع السابق، ص 67

[3]- ريهام حسني، المفاهيم الحداثية وما بعد الحداثية للأجناس الأدبية، مجلة النقد الأدبي فصول، مصر، (2/25)، العدد 98، 2017، ص 515

[4]- فاضل التميمي جذور نظرية الأجناس الأدبية في النقد العربي القديم دار الفكر للنشر والإشهار تونس 2014 ص 21

مصطلحات أخرى يتم استخدامها كمفردات لهذا المصطلح على الرغم من وجود اختلافات بينها في الدلالة. علما "أن كلمة جنس أو النوع مأخوذة من مقولات أرسطو، والتي تستخدم في علم النبات، وعلم الحيوان، وعلم الأجناس الأدبية، أي أن التخصصات العلمية الحديثة، كعلم النبات، وعلم الأحياء، وغيرها، تأثرت بها شتى الميادين، ومنها النقد والأدب"[1]، وهو ما يتبين لنا في إفادة العديد من النقاد من مناهج وآليات هذه التخصصات في دراسة الآثار الأدبية ومعالجتها.

- **من المنظور الغربي:**

اعتمدت الباحثة في تطرقها لإشكالية مصطلح "الجنس الأدبي" في النقد الغربي على البحث في جذوره بالرجوع لأعلام النقد التجنيسي معددة تلك المصطلحات عن معناه، قائلة بأن مصطلح Genre فرنسي الأصل مشتق من المفردة اللاتينية (Genus) التي تشير في بعض الأحوال إلى Kind أو Sort أو Specie كما تطرقت إلى ماهية (Genre) التي وردت في المعجم الإنجليزي للمصطلحات الأدبية بأنه مصطلح فرنسي يدل على نوع Kind، نمط Type، أو طبقة أدبية، ويضيف بأن الأجناس الكلاسيكية المعروفة كانت هي الملحمة، التراجيديا، الغنائي، الكوميديا، والساتيرية، يضاف إليها حاليا الرواية والقصة القصيرة. مؤكدة أن مصطلح Genre استعمل بشكل واسع في القرنين السابع عشر والثامن عشر، بإدراجها رأي "رالف كوهين" بأن مصطلح Genre مصطلح حديث نسبيا في الخطاب النقدي[2].

- **من المنظور العربي:**

أما فيما يخص منظورها لترجمة وماهية المصطلح " Genre" في الفكر النقدي العربي فتقول: أنه "ورد مصطلح (نوع) عند النقاد العرب القدامى بشكل شائع، كما ورد عندهم مصطلح (جنس) بنفس المعنى. وعند بعضهم فهو (فن) أو (طراز) أو (ضرب) لم يكن هناك استقرار على مصطلح واحد حتى عند الناقد الواحد، ويرجع ذلك إلى إدراكهم

[1]- ليندا كدير، كتاب: جذور نظرية الأجناس الأدبية في النقد العربي القديم –قراءة نقدية-، مجلة النقد الأدبي فصول، مصر، (2/25)، العدد 98، 2017، ص 476

[2]- ينظر: فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-، ص 24-025.

أن تلك الاصطلاحات وإن اختلفت لغويا، فهي تحمل معاني التقسيم والتصنيف، ولذلك كانت صالحة لتحل محل بعضها دون لبس"[1].

ومع إثارة هذه الإشكالية المتعلقة بترجمتها إلى اللغة العربية والتي تناولها بعض الدارسين قبلها فلا بأس أن نستعرض على نحو من الإجمال هذه الجهود بحيث يجمعها الباحث "سامي شهاب أحمد" في كتابه "النقد الأدبي الحديث" المقابلات التي وظفها أو حددها الباحثون العرب المعاصرون لمقولة Genre يقول: "فالنقاد أمثال محمد غنيم هلال في كتابه (الأدب المقارن)، وعبد السلام المسدي في كتابه (النقد والحداثة)، وأحمد كمال زكي في كتابه (دراسات في النقد الأدبي)، وفؤاد مرعي في كتابه (مقدمة في علم الأدب)، ورشيد العبيدي في كتابه (دراسات في النقد الأدبي)، وخلدون الشمعة في بحثه (الأجناس الأدبية من منظور مختلف)، وعبد الإله الصائغ في بحثه (التجنيس بين الخطابين الشعري والسردي) وغيرهم أكدوا على مصطلح الجنس الأدبي ولم يستعملوا مصطلح النوع الأدبي أو الشكل الأدبي. ولكننا نجد في الجهة المقابلة عددا من النقاد قد ركزوا على مصطلح النوع، وهم كل من عبد المنعم تليمة في كتابه (مقدمة في نظرية الأدب)، وعلي جواد الطاهر في (كتابه مقدمة في النقد الأدبي)، وعبد الله إبراهيم في بحثه (مقدمة في نظرية الأنواع الأدبية) وغيرهم كثير. كما أن عددا من الكتب التي ترجمت للعربية استخدم فيها المترجمون مصطلح نوع كذلك"[2].

ومازالت إشكالية التعدد الدلالي والتوظيف في المنظور العربي حتى اليوم تجد إشكالا في الاستعمال وفي تحديد المفهوم الذي يندرج تحتها. وهذا ما تجلى عندنا اثر اطلاعنا على بعض المؤلفات والمقالات والبحوث الأكاديمية.

وبما أن المصطلح مهما يُعرف في ابتعاده عن وضعه اللغوي أو أصله الوضعي الأول ، فإنه يبقى مرتبطا بالمستوى المعنوي، لذا نجد أن الناقدة عادت إلى المعاجم العربية لكي تستوضح الدلالة اللغوية الدقيقة للمصطلح الذي عدته أصل إشكالية "نظرية الأجناس الأدبية" في الفكر النقدي العربي، إذ تقول: "أما إذا عدنا إلى المعاجم اللغوية القديمة فنجد أنها اتفقت عموما على معنى لفظتي (جنس) و(نوع). إذ تشير كلمة

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ص 27

[2] - سامي شهاب أحمد، النقد الأدبي الحديث –قضايا واتجاهات-، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص 21

(جنس) إلى فكرة التشابه والتماثل، وتشير كلمة (نوع) إلى فكرة الانحراف أو الاختلاف أو التنوع، بحيث تجمع معظم المعاجم على تعريف الجنس بكونه (الضرب من الشيء) أو (الضرب من كل شيء)، أو (كل ضرب من الشيء)، وبذلك يوحي المعنى المذكور لمعنيين هما: أولا، التصنيف والترتيب والجمع. وثانيا، وهو الأقرب إلى الأصل اللغوي، معنى المشاكلة. كما تتفق أيضا على أن (النوع) هو (الضرب من الشيء) أو (الصنف منه)، وإن كان الجنس أعم من النوع، والنوع أخص من الجنس"[1]، ما يعني أن الجنس أعم من النوع والنوع أخص من الجنس، "أما النمط فهو الطريقة، وهو أيضا الضرب من الضروب والنوع من الأنواع، وهذا يدل على أنه ما تفرع من النوع من أنواع، وبالتالي فهو أخص من النوع"[2].

وقد أجمع العديد من النقاد العرب في العصر الحديث على أن مصطلح "الجنس" هو المقابل الأصح لمقولة "Genre" وهو الأنسب من النوع، وهذا يعود إلى مفهوم الجنس الذي عرفه "ابن منظور" في معجمه "لسان العرب" بأن الجنس أعم من النوع ولهذا كان هو الأنسب، ومن بين هؤلاء النقاد "عبد المالك مرتاض" في كتابه "في نظرية الرواية" الذي آثر مصطلح (الجنس) على مصطلح (النوع) "وهو وجه من التدقيق اللغوي أغرانا بأن نجعل الجنس هو الأصل الذي تتفرع منه الأنواع، كشأن الشعر الذي إن كان في نفسه جنسا فإن المسارات التي عرفها عبر تطوره، وتشعب موضوعاته، واختلاف أشكاله جميعا هي في حقيقتها أنواع"[3] وبهذا تكون علاقة الجنس بالنوع هي علاقة الكلي بالجزئي.

أما فيما يخص تحديد ماهية "الجنس الأدبي" فقد توقفت الناقدة عند تعريف "مجدي وهبة" القائل: أنه "أحد القوالب التي تصب فيها الآثار الأدبية، فالمسرحية مثلا جنس أدبي، وكذا القصة، وهكذا..."[4]

وإذا ما أردنا جمع أهم النقاط التي ناقشتها وانتهت إليها الباحثة في خطابها النقدي بما يتعلق (قضية المصطلح) في الثقافة النقدية الغربية والعربية خلصت إلى

---

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني، ص 28

[2]- المرجع السابق ، ص 28

[3]- عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 21

[4]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني، ص 29

استنتاج إشكالي وطرح بعض التساؤلات، وهو ما يظهر جليا في قولها: "كلمة Genre" التي تترجم إلى العربية بـ"جنس" عند البعض، و"نوع" عند البعض الآخر، مصطلح قديم قدم موضوع الأجناس الأدبية التي طرحت منذ أرسطو، وحديثة حداثة المفاهيم الأجناسية التي أضيفت إلى الموضوع منذ القرن التاسع عشر. إن تداخل هذه المصطلحات الأجناسية وغموضها واضح جدا، مما يدعو الى الشك حتى في مفاهيميها، فما هي الحدود الفاصلة بين نوع Genre الذي يسميه البعض جنسا؟ ، وبين نمط Type وصنف Class وصيغة Mode؟ هذا الخلط بين الجنس " و"النوع" لا يزال واردا، مع أنه ومنذ القرن الثامن عشر ميزت العلوم الطبيعية بين الجنس Genre (Genus) باعتباره الوحدة الأوسع، والنوع Espéces (Species) كفرع من المجموعة، وكذا يجب أن نفرق الآن بين الجنس والنوع في الأدب. معتمدة على تصريح "كارل فييتور" في مقالته (تاريخ الأجناس الأدبية) للحد من اختلاط المفهومين"[1]، وما هذا إلا إثبات على وجود إشكالية ذات تصور تعقيدي تخص المصطلح Genre في الفكر النقدي الغربي قبل العربي.

لعل سؤال الجنس الأدبي سواء تعلق بمفهومه أم بعلاقته بغيره من الأجناس أو تعلق بوظيفته بالأدب تبقى إجابته تتلون في كل مرة بآثار المراجع التي احتضنته والمنازع التي أبرزته، ولقد استقطبت هذه الأسئلة والأجوبة العديدة الناقدة، ما قادها إلى البحث عن سؤال آخر لا يقل أهمية عن إشكالية مصطلح Genre مثل : ما هي العلاقة التي تربط النص بالجنس؟، ما هي العلاقة التي تربط نصا معينا بجنسه؟، "هذه الأسئلة وأخرى، وإن كانت تحاول تجاوز إشكالية المصطلح والمفهوم، فإنها تقود إلى إشكالات فرعية أكثر تعقيدا، كعلاقة النص بالجنس"[2].

2.1.2 الأدب: سؤال الماهية وعلاقته بالجنس الأدبي

لعل من القضايا الدائمة الحضور في مجال "نظرية الأدب" و"الشعرية" هي ماهية الأدب والعلاقة بين النص الأدبي والجنس الذي ينتمي إليه ؟ ، فثمة جدلا طويلا ومتشعبا حول ماهية تلك العلاقة الذي ظلت قائمة منذ تصورات "أرسطو"، فمن ذلك العهد اتفق جل الباحثين على صعوبة تحديد مفهوم جامع مانع للأدب رغم شيوع هذا المصطلح وكثرة تداوله في الثقافات الإنسانية على مر العصور، بناءً على التحولات

[1]- ينظر: فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 24- 25

[2]- المرجع السابق، ص 27

التاريخية التي مر بها، ومع ذلك، فإن المتأمل في الأدب يجد أن هذه الكلمة "يندرج تحتها كثير من صور التعبير، كالقصيدة والقصة...، وهذه الصور المختلفة من التعبير الأدبي تكون ما يسمى بالأنواع الأدبية"[1]، ويمكن القول أن هذا المفهوم امتد تأثيره إلى الخطاب النقدي.

فقضية عدم ضبط ماهية الأدب تمثل إحدى أوجه إشكالية الأجناس الأدبية مفهوما وتصنيفا، فتحديد ماهية الجنس الأدبي رهين بتحديد ماهية الأدب، وكما لا يوجد ماهية قارة للأدب لا يمكن ضبط ماهية الجنس الأدبي أيضا (وبالتالي الأجناس الأدبية الشعر والنثر)، وقد وظف التقابل الموجود بين هذين الأخيرين لتحديد ماهية الآخر. بحيث "يتعلق مفهوم الجنس الأدبي أساسا بمفهوم الأدب، والإجابة على سؤال ما هو الجنس الأدبي؟ مرتبطة أساسا بالإجابة التي يقدمها سؤال: ما هو الأدب؟ وهو السؤال الذي لا يزال يحير الشعرية، باعتبار أنها لم تستطع بعد تقديم مفهوم قار للأدب، ولعلها لن تصل إلى ذلك طالما هو في حالة تغير وتحول مستمرين"[2].

وهو ما جعل الناقدة "فيروز رشام" في خطابها النقدي تربط هذه الجدلية بإحدى أوجه إشكالية الأجناس الأدبية، "فقد استقطب سؤال ما هو الأدب؟ الأجوبة الأشد تنوعا، كما هو حال السؤال ما هو الجنس الأدبي؟"[3]، والتساؤل الأكثر أهمية بالنسبة لها والذي لا يزال يعتريه كثير من الغموض "هو علاقة الأدب بمقولة الأجناس والأنواع: فهل الأدب هو جنس وما تحته من شعر ونثر أنواع؟ أم أن الشعر والنثر جنسان، وما تحتهما هي الأنواع؟ أم أن الشعر والنثر جنسان ونوعان في الوقت ذاته (جنسان بالنظر إلى الأنواع التي تتفرع عنهما، ونوعان بالنظر إلى الجنس الذي ينتميان إليه)"[4].

وتبعا لذلك يمكن القول أن (الشعر، النثر، الدراما) وهو أقدم تصنيف للأجناس الأدبية الكبرى وصل إلينا، وهوية نصوصهم الانتمائية تتحدد من خلال الشكل والخصائص الأسلوبية والوظيفية، فكل من هذه العناصر يسهم في نحت معالم

---

[1] - عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه –دراسة ونقد-، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط8، 2002، ص 69

[2]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-، ص 29.

[3]- المرجع السابق، ص 31.

[4]- المرجع السابق، ص 32.

الجنس وطبيعته وتميزه عن باقي الأجناس وإذا ما حدث تحول داخل الجنس فإن وظائفه الأصلية وخصائصه النوعية تبحث عن صيغ شكلية مختلفة في الأجناس الأخرى تستطيع استيعابها واحتوائها، ثم تسعى في مرحلة لاحقة إلى محاولة الاندماج في هوية أجناسية كبرى لتضمن أصالتها وبقائها ضمن المشهد الأجناسي العام. أي أن يتفرد كل نص أدبي بسمات وخصائص ثابتة فيه تميز بنيته وتشترك في جميع الأعمال الأدبية المصنفة في إطار هذا الجنس، فالأدب "يتوزع إلى أنواع تتشابه وتختلف حسب بنية كل نوع، وبهذا الاعتبار فالنوع في مجال الأدب شكل يشترط فيه، ليقوم كنوع أدبي تفرد بسمات أسلوبية خاصة"[1]، ما يجعل علاقة الجنس الأدبي ومفهوم الأدب شديد التلاحم. وهذا إذا ما اعتبارنا أن النص الأدبي تعبيرا فرديا يهتدي بقواعد الجنس الذي ينتمي إليه –وهو الأصح-، التي تبلورت عبر الزمن من جملة الخصائص الفنية لنصوص تجمعها روابط مشتركة في أساليبها وأبنيتها وموضوعاتها، و "إن ما يجعل النوع معروفا، هو اشتراك مجموعة من النصوص في إبراز نفس العناصر"[2].

فالأدب أو النصوص الأدبية وعلاقتها بالجنس الأدبي لا تستند إلى فراغ ، وإنما تعبر بالضرورة عن الأجناس التي تنظمها وتنضوي تحتها ، فبقدر وفائها لأنماط ومقومات الإبداع وأشكال التعبير المميزة لجنس أدبي ما وفق مبدأ المشابهة والمماثلة يكون الانخراط وتأكد الانتماء ، فإذا ما انتفت الخصائص المتشابهة خرج النص عن نسقه الأجناسي ليلتحق بنسق أجناسي آخر.

وطبقا لهذا التصور، تظهر الأجناس الأدبية التي تقوم على ترابط مجموعة من العناصر التي لا تظهر كلها بالضرورة في عمل أدبي واحد ولكن الأشكال الخارجية ستكون بالتأكيد من بين المؤشرات مثل البناء الهندسي والموضوع والتناسب البلاغي الأسلوبي. وهذا ما يرتبط بموضوع إشكالي آخر لا يقل أهمية عن سابقيه، وهو موضوع "التصنيف الأجناسي"، "باعتبار أن الأدب يتمايز إلى أجناس وأنواع مختلفة،...، ومن ثمة بدأت ظاهرة أخرى في البروز، وهي ما يسمى بتلاشي الأجناس وتداخلها. وهو ما خلط

[1] - رشيد يحياوي، مقدمة في نظرية الأنواع الأدبية، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص 10

[2]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-، ص 66.

الأوراق من جديد في قضية تصنيف الأجناس والأنواع"[1]، الذي لم يغفل عنه النقد العربي القديم ولا الناقدة في خطابها النقدي، وجمعه بقضية علاقة الأدب بالجنس الأدبي وتطورهما إذ قالت: "هما وجهين متكاملين لقضية واحدة، ولكنهما منفصلان، وقد تم دائما الخلط بينهما، ولذلك عمدنا إلى الفصل بين العنصرين في هذا البحث"[2]. وهو ما سنتطرق إليه في المبحث الموالي.

3. آليات عملية التصنيف الأجناسي وتأطير حدودها:

بات من المعلوم أن قضية "الأجناس الأدبية" قديمة في الفكر النقدي الغربي خاصة والعربي وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأدب، وتعد معايير تجنيس وتصنيف النصوص من الإشكاليات الجوهرية في تاريخ هذه النظرية وتحولات الأدب، التي تقوم على أساس معرفة أصالة الجنس الأدبي وتتبع حركته زمانيا ومكانيا للوصول إلى الأجناس المنبثة عنه خلال مسيرة تطوره، بالتمييز بين الأصيل والدخيل وبين المتقدم والمتأخر وبين الأصل والفرع، فالدراسة حسب هذا النمط تساهم في الحفاظ على خصائص الأجناس الأدبية بتتبع التغيرات التي طرأت عليها من عمليات الانزياح والخلخلة التي تعتريها خلال مسيرتها التاريخية.

وإن تصنيف الناقد للأدب وفق الأجناس الأدبية يستدعي منه أربع خطوات في تعامله مع النصوص أولا تحديد الأصل، وثانيا يميز التابع من المتبوع، ويتتبع النسب ثالثا، ورابعا يحدد هويته الانتمائية، فأما تحديد الأصل فيستدعي معرفة ما يمكن أن نسميه النموذج الأصلي الذي تصدر عنه باقي النصوص وتحاكيه، إذ الأصل "تتولد عنه الفروع، وترجع إليه، وتحمل خواصه، وهو المعيار الذي يجب أن يقاس عليه كل فعل تال له لأنه الأول أو أُتخذ كذلك"[3]، وهذا ما يجعل الناقد أكثر اشتغالا على النصوص الأدبية منذ الخطوة الأولى، إذ أن التصنيف حسب الأجناس يتطلب معالجة فنية دقيقة ودراسة أدبية سابرة كما أن تتبع مسيرة الأجناس زمانيا ومكانيا يتطلب جهودا كبيرة ودراسات معمقة ، فلا بد أن يدرك الناقد الثنائيات حتى يتمكن من معرفة جذور

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 67.

[2]- المرجع السابق، ص 67.

[3]- أحمد بو حسن، التقليد وتاريخ الأدب العربي، ضمن كتاب التحقيب –التقليد، القطيعة السيرورة-، تنسيق: محمد مفتاح، أحمد بو حسن، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط سلسلة ومناظرات، رقم 61، ط1، 1997، ص 70.

الجنس الأدبي ليتتبع مسيرة تطوره خاصة أن في العصر الحديث عرفت نظرية الأجناس الأدبية وأسس التصنيف "تغيرا ملحوظا في القرن التاسع عشر مع ظهور التيار الرومانسي الذي دعا لاختراق قواعد الأجناس والأنواع. ومن ثمة بدأت ظاهرة أخرى في البروز، وهي ما يسمى بتلاشي الأجناس وتداخلها. وهو ما خلط الأوراق من جديد في قضية تصنيف الأجناس"[1]، التي زادت عملية تجنيس النصوص تعقيدا فلم تعد الحدود بين الأجناس موجودة أو إنها فقدت قوتها على أقل تقدير فالكتابات الحديثة لم تعد خاضعة لمعايير الجنس الأدبي.

والحديث عن نقاء الجنس الأدبي لم يعد ذا جدوى ما دام النص فسيفساء من عدة نصوص متباينة الأجناس، فالكتابة أصبحت خلخلة لمعايير التجنيس وانزياحا عن قواعد التصنيف، واستعصاء بعض الظواهر الأدبية على التجنيس لأسباب تعود إلى طبيعة تلك المادة كما هو شأن (قصيدة النثر والرحلة والسيرة الذاتية)، فهذه الأجناس من النصوص لا شك في أدبيتها إلا أن الخلاف ما زال قائما في الجنس الأدبي الذي تنتمي إليه، وبالتالي إشكالية تجنيس النصوص التي يواجهها مصنف الأدب إنما تكمن في طبيعة تلك النصوص إذ إن الكاتب الحديث كما تقول "ناتلي ساروت": "لم يعد يقنع بتقليد أسلافه، بل يضطر إلى اختراع أشكال جديدة"[2]، وهذه الأشكال الجديدة كثيرا ما تخرج عن تلك القواعد ولهذا نجد قصيدة النثر مثلا "نص تهجيني مفتوح على الشعر والسرد والنثر الفني، عابر للأنواع، ويفتقد إلى البنية الصوتية الكمية المنظمة، لكنه يمتلك إيقاعا داخليا غير منتظم من خلال توزيع (علامات الترقيم) و(البنية الدلالية) المركبة على بنية التضاد، و(جدلية العلاقات) في النص، التي تخلق الإيقاع الخفي"[3].

إن طبيعة هذه النصوص تجعل تصنيفها أمرا غاية في التعقيد ، لأن النمط الكتابي لهذه الأجناس هجين بين الشعر والنثر ، يجمع بين خواص جنسين متقابلين، ما ينتج نص أدبي يتسم بتعدد دلالاته وخصائصه التمييزية، وهذا ما يجعل تحديد هويته أمر إشكاليا، وعلى الرغم من ذلك، لا يمكن إلغاء "نظرية الأجناس الأدبية"

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-، ص 67.

[2]- إيف ستالوني، الأجناس الأدبية، ترجمة: محمد الزكراوي، مراجعة: حسن حمزة، بيت النهضة، بيروت، ط1، 2014، ص 198

[3]- عز الدين المناصرة، إشكالية قصيدة النثر، الحوار المتمدن، العدد 5012، 2015، ص 12

والتمرد عليها إذ إن دورها التصنيفي لا غنى عنه في البحث الأدبي والنقدي خاصة. ولا شك في أننا نرفض إسقاط هذه النصوص من تاريخ الأدب ، إذ إنها جزء لا يتجزأ من مسيرة الأدب العربي، كما نرفض تجنيسها دون دراسة واعية فذلك يؤدي إلى نسبة النصوص إلى غير أجناسها الأدبية ولا يمكن دراسة هذه النصوص دون الإشارة إلى جنسها الأدبي بدعوى صعوبة تجنيسها لأن ذلك يخل بفهم النص كما يؤدي إلى تقويض نظرية الأجناس الأدبية، ولكن "بدل تقويض نظرية الأجناس الأدبية، ينبغي تطويرها وتطهيرها مما التبس بها من مثالية وتراتبية ونظرة إطلاقية ثبوتية لأجناس الأدب"[1]، فالجنس الأدبي ظاهرة جمالية تاريخية لسياقها الحضاري والفكري وتقبل التعديل والتطور فلا وجود لشيء يمنع ظهور أجناس أدبية جديدة كما أن الجنس الأدبي يجب أن يبقى دائما منفتحا على جدلية الكتابة والتلقي.

1.3 التصنيف وآلياته:

عملية التصنيف الأجناسي تقوم باستنطاق النصوص الأدبية بعيدا عن مقصدية قائلها بتفكيك شفراتها انطلاقا من رصد علاماتها النصية التي تشكل البنية والقالب الشكلي الذي يمثل العصب الأساس في التفكير النقدي لنظرية التجنيسية. بحيث يهدف التصنيف إلى مقاربة أوجه التشابه والاختلاف بين الظواهر والآثار وبعد ذلك يتم تصنيفها وتوضيحها "والعرض من ذلك هو تسهيل إدراك العلاقات بين الوحدات أو المجموعات المصنفة وحفظها في الذاكرة"[2]، وبالتالي فإن فكرة التجنيس تنشأ عادة من فكرة التصنيف، والتصنيف نظام له منهجيات وأسس علمية تستخدم في ميادين علمية وإنسانية متعددة، كالبيولوجيا والاقتصاد والأدب وغيرها.

إنّ البحث في التصنيف هو طريقة تحديد الاتجاهات الأدبية وبعبارة أدق تحديد الأجناس الأدبية (الشعر العمودي أو الشعر الحر أو الرواية أو قصة أو مسرحية ...)، باعتبارها أجناسا أدبية لها تاريخها ومقوماتها وخصائصها التي تضبطها لأن الأدب كما هو شائع في الفكر النقدي ينقسم إلى أجناس أدبية غير منتهية.

والتصنيف وفق ما ورد في المعاجم هو تمييز الأشياء بعضها عن بعض ، أي تقسيمها وفق تشابهها إلى مجموعة تضم كل مجموعة وحدات تشترك في صفة أو

[1]- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، ط1، 2010، ص 133

[2]- هاني العمد، المعالجة الفنية للمعلومات، منشورات جمعية المكتبات الأردنية، عمان، 1975، ص 60

خاصية واحدة على الأقل، "فيقال صنف الشيء جعله أصنافا وميز بعضه عن بعض، ولا يختلف معنى التصنيف في مفهومه العام عن معناه اللغوي وهو يعني جمع وترتيب الأشياء المتشابهة في أقسام تبعا للصفات المتشابهة "[1]، فتكاد تجمع كل المفاهيم على أن التصنيف يعني عملية الفرز، ذلك أن "التصنيف عملية تجريدية لترتيب عالم الأشياء"[2]، وهو بمثابة "تنظيم لوحدات في علاقات اندماجية وتراتبية، بملاحظة أكبر عدد من الأحداث الممكنة وتجميعها وترتيبها بحسب مقاييس يمكن معها استخدام نظام ما"[3].

والمصنف لا يستطيع أن يكون إلا ناقدا ، إذ لا مخرج أمام الناقد إلا بمعرفة الجنس الأدبي الأساس الذي ينتمي إليه النص المشتغل عليه، ولا مخرج للمصنف إلا أن يتسلح بخبرة الناقد وحمولته المعرفية وترسانته الاصطلاحية لحظة محاولته تحديد السمات الأساسية المشتركة التي تمكّننا من القول أن هذا النص قصيدة شعرية أو رواية أو قصة أو مسرحية... "عملية تجميع النصوص على أسس مشتركة من صفات الشكل والتركيب والموضوع لتسهل دراسة النصوص"[4].

لقد تباينت آليات تصنيف الأدب إلى أجناس وتأطير حدودها بما يمتاز به كل جنس من الخصائص والحقائق التي عن طريقها تسهل معرفة طبيعة النصوص الأدبية ، مما يؤهل المتعامل معها أن يدرك أبعادها ومعانيها وتفتح أفق انتظاره وتساهم في تأويل النصوص وتفسيرها، فالمتلقي لا يحس بالمتعة الفنية أو لذة النص كما يقول "رولان بارت" إلا إذا كان النص الذي بين يديه له هويته الخاصة التجنيسية، فأي دراسة تروم تصنيف نصوص الأدب إلى أجناس يجب أن تنطلق من قناعة انتمائها إلى حقل يسميه النقاد حقل الجنس الأدبي، وتقوم هذه الدراسة على ضرورة فهم عميق لكل ما تعلق (بالجنس الأدبي) الذي كان ولا يزال في صلب اهتمامات الدراسات النقدية حتى تلك التي رفضته.

---

[1]- أحمد بدوي، فن تصنيف كتاب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1993، ص 09

[2]- - سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة –عرض وتقديم وترجمة-، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 135

[3]- المصدر السابق، ص 135

[4]- عبد الستار جبر الأسدي، حدود الأفق المفتوح (قراءة في خريطة تجاوز الأصناف الأدبية)، مجلة علامات، المغرب ،عدد 18، ص 33

وما المقاييس التي يعتمد عليها المصنف إلا تلك المعايير والأسس التي يتباناها الناقد في ممارسته النقدية التجنيسية إزاء العمل الأدبي الإبداعي. ومن خلال تصفحنا لدراسات ومقالات حول هذه المعايير نجد أنها تختلف وتتنوع هناك ما تتعلق بالناقد ذاته وأخرى بالمبدع ومقاييس خاصة تتعلق بالأثر الفني والتي بفضلها يمكن أن ننسب الإبداع إليه.

2.3 التصنيف الأجناسي وإشكالاته:

الخطاب الأدبي منذ القدم يتخذ أشكالا عدة فقد يكون قصة أو رواية أو مسرحية أو شعرا عموديا أو شعرا حرا...، تسمى هذه الأشكال الأجناس الأدبية التي تندرج في الخطاب الشعري والخطاب السردي والخطاب المسرحي الدرامي، وتحاول "نظرية الأجناس الأدبية" البحث عن المكونات التي تكون بنيته الفنية، وتتأتى هذه العملية بالتركيز وتحليل الأشكال المكونة للخطاب الأدبي التي يمكن استخلاصها في جملة من الشروط والمقاييس التي تجعل من خطاب معين خطابا أدبيا له نظامه (الأصوات - التراكيب والدلالة- وظيفته- القالب الفني).

فلكي نحدد هويته التجنيسية لا بد من تتبع منهجية وصفية تستند إلى إبراز مواصفات الجنس الأدبي ومميزاته الفنية باستخلاص بنياته النوعية واكتشاف مكوناته التجنيسية لمعرفة ما هو ثابت وجوهري ورصد ما هو ثانوي متغير، مع استجلاء حيثيات التطور الأدبي وتداخله مع غيره من الأجناس. بحيث أن توالد أجناس جديدة ناتج عن تداخلها إلا أن هذه القضية غير قادرة على محو الحدود الفاصلة بينها نهائيا.

فعلى صعيد البحث العربي فيما يخص مسألة التصنيف الأجناسي ، فإن العرب قديما لم يولوا اهتماما كبيرا لوضع التصنيفات والتقسيمات للأدب، بل كان أكثر التصنيف شيوعا "هو تقسيم الأدب إلى شعري ونثري، بحيث يتفرع كل شكل منها إلى أنواع"[1]، ومن أهم النقاد العرب القدامى الذين تبنوا هذا التصنيف "ابن رشيق القيرواني" و"قدامة بن جعفر" و"ابن خلدون" الذين اتفقوا "على وضع الشعر والنثر في مرتبتين متساويتين تندرجان ضمن جنس أعلى هو الكلام أو اللغة، وهو ذات التصنيف

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-، ص 67

الذي تبناه عدة نقاد في عنونة كتبهم كالعسكري، القلقشندي، ابن الأصبع، ابن الأثير، وغيرهم"[1].

فبالرغم من شيوع هذا التصنيف الذي لقي ترحيبا كبيرا عند كثير من النقاد إلا أن الناقدة تلمح أن هناك إشكالية في إدراج هذين الصنفين (المنظوم أو الشعري / المنثور أو النثري) ضمن الكلام أو البلاغة بأنه "هذا التقسيم يثير بعض الريبة، فهل اعتبار الكلام أو البلاغة جنسا يتفرع إلى شعر ونثر، يعني أن هذين الأخيرين نوعين؟ إن كانا كذلك فماذا نسمي الأشكال التي تندرج تحتهما؟ وإن لم يكونا فما حالهما إذا؟"[2]، وتجيب في ذات الوقت برأي "رشيد يحياوي" القائل بأن "النثري والشعري كليهما ليسا نوعين أدبيين، وإنما هما في مقابل بعضهما، توزيعان شكليان للتناول الأدبي للغة"[3]، وما دام أنها تبنت هذا الرأي فإنا توافقها، خاصة في تصريحها بأن أجناس الأدب هما "الشعري والنثري هو أهم تقسيم أجناسي عند العرب"[4].

إلا أن التصنيف الأجناسي في الفكر النقدي الغربي يختلف عن التصنيف العربي "فيعد التقسيم الثلاثي: ملحمي، غنائي، درامي، من أقدم وأشهر التقسيمات الأجناسية التي وصلتنا، نقلا عن أفلاطون وأرسطو وهو التقسيم الذي أخذت به أغلب النظريات الأنواعية، خاصة الكلاسيكية منها"[5]، وبقي هذا التصنيف هو المتداول في الدراسات الغربية ، فلم تخرج الاجتهادات ما بعد أرسطو عن هذا التصنيف الثلاثي، بل عملوا على إثبات شرعيته والدفاع عنه طيلة فترة الكلاسيكية الجديدة في القرن الثامن عشر، إلا أن ما يؤخذ على تصور الكلاسيكية الجديدة هو أنها "أهملت الكثير من الأنواع التي لا تصنف ضمن هذه الأنواع الكبرى. وحتى بعد مجيء الرومانسية ظلت عناصر الثلاثية القديمة سائدة. على أن أهم ما جاءت به الرومانسية هو هدم فكرة (نقاء الأنواع) الكلاسيكية، وهو ما خفف من سيطرة الثلاثية القديمة، وفتح المجال لأنواع جديدة مختلطة، ومفتوحة على التغيرات الجديدة"[6]، ما جعل تصنيف الأجناس

---

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 67

[2]- المرجع السابق، ص 67- 68

[3]- المرجع السابق، ص 68

[4]- المرجع السابق، ص 68

[5]- المرجع السابق، ص 68

[6]- المرجع السابق، ص 69

ذا طابع إشكالي وجدلي وفي نقاش مستمر بين آراء وتصورات نقاد الغرب، بظهور محاولات كثيرة لتصنيف الأدب بحيث "لم تنجح محاولات تصنيف الأنواع الأدبية، عكس ما هو الحال في المجالات العلمية. ذلك لأنها تصطدم بمشاكل كثيرة، منها كثرة الأنواع وتداخلها، وكذلك خصوصية الأثر الأدبي وفرادته. بالإضافة إلى عدم ثبات الأنواع وتحولها المستمر من زمن لآخر. حتى أنه يبدو أمر التصنيف مستحيلا أحيانا. وربما هذا ما يبرر كثرة التصنيفات وتنوعها لدرجة أنه يصعب إحصاؤها كاملة"[1].

ومن بين أهم التصنيفات التي اعتمدتها الناقدة "فيروز رشام" في إظهار إشكالية ضبط معايير ومقاييس تصنيف الأدب إلى أجناس بأن هناك تصنيفا " يصنف الأنواع حسب مواضيعها، كتقسيم الرواية إلى تاريخية، سياسية، دينية... أو تقسيمها على أساس (الذاتية والموضوعية) كما فعل هيجل. أو من منظور مقولة (النسق) كما هو الحال عند ياكبسون الذي يرى أن النوع الأدبي عبارة عن جملة من الأنساق التي يهيمن فيها نسق معين، وهو ما يسميه (المهيمنة). ويقترح آخرون كالعالم الألماني (أ. بوزيمان) التمييز بين الأنواع من خلال التمييز بين الأساليب، كتمييز لغة الأدب من لغة العلم، ولغة الشعر من لغة النثر، والتمييز بين أساليب الأنواع الأدبية"[2]، و هذا التنوع في تصنيفات الأدب مرده إلى تصور الدارس فهناك من يتطلع إلى النصوص من زاوية المضمون وآخر من زاوية الشكل والبنية الفنية، ما جعل معايير وأسس التصنيف تتباين في الخطاب النقدي التجنيسي الغربي والعربي.

فمن خلال عرض بعض الآراء التصنيفية التي كثرت فيها الرؤى بحكم أنها موضوع صعب غير يسير ومعقد بناء على شكل النصوص الأدبية خاصة في العصر الحديث وتداخلها فيما بينها من جهة وتعدد الأسس التي ينطلق منها كل ناقد في رصد معايير تصنيفها وتحديد هوية انتمائها لأحد الأجناس الأدبية، نجد أن الناقدة "فيروز رشام" تعرضت في دراستها النقدية إلى أهم ضروب التصنيف الأجناسي التي توقف عليها الفكر النقدي الغربي بحيث جمعتها فيما يلي:

- تصنيف "ديكرو" و"تودوروف" في قاموسهما:

1) شعر/نثر وهو تصنيف شائع لكن يكتنفه الغموض

[1]- فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، ص 70

[2]- المرجع السابق، ص 70

2) غنائي ملحمي، درامي، وهو تصنيف وهو تصنيف يمثل الأشكال الجوهرية والطبيعية للأدب
3) التراجيديا بمقابل الكوميديا.
4) نظرية الأساليب الثلاثة: الرفيع ، الوسيط، والوضيع التي تعود للعصر الوسيط
5) تصنيف (أندري يولس) المتمثل في الأشكال البسيطة للأدب

- إضافة إلى هذه التصنيفات توجد تصنيفات كثيرة أخرى لا تقل شهرة وأهمية وشيوعا منها التصنيفات:

1 التصنيف الهرمي- 2 التصنيف النمطي- 3 التصنيف الإحصائي- 4 التصنيف الانتقائي التحليلي- 5 التصنيف التأسيسي- 6 التصنيف التكاملي.[1]

وفي الأخير تخلص الناقدة إلى أن "كل هذه التصنيفات المختلفة وأخرى لم تحل المشكلة فالإحصائي ليس نهائي، والثنائي (شعر/نثر) لا يحل قضية تعدد الأنواع، أو وجود أنواع تمزج بينهما كالشعر النثري والنثر الشعري. والتصنيف الثلاثي القديم (غنائي، ملحمي، درامي) لا يغطي كل الأنواع"[2].

4. خاتمة:

ليست غاية السطور التالية تقديم ملخص شامل عن كتاب "فيروز رشام" "شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي –دراسة أجناسية لأدب نزار قباني-" ولا تقديم عرض مفصل لكل الأفكار والقضايا ال التي تضمنها مدخل دراستها، فهي قضايا كثيرة ومتشعبة تستمد قيمتها وأهميتها من كونها تتسع وتمتد لتطل على مجالات مختلفة ، تستوعب النقد الأدبي وتاريخ الأدب ونظريات الأدب.

والحق أن التتبع الحصيف للأفكار التي يطرحها هذا الخطاب النقدي يسلم بلا ريب إلى حقيقة أن الدارس تحكمه رغبة ملحة في التأسيس لتصور نقدي طموح ومتميز يلامس بعض القضايا تملها انشغالات النصوص الأدبية في الساحة النقدية المعاصرة، في ارتباطها بالأفق الثقافي الإشكالي العام الذي يلزم أن نتصدى له جميعا، والتي تتمثل في أنّ :

[1]- ينظر: فيروز رشام، شعرية الأجناس الأدبية في الأدب العربي ، من ص 69 إلى ص 71
[2]- المرجع السابق، ص 71

- النظرية لم تسلم من الطابع الإشكالي الذي يطغى على مباحثها بحيث تعد قضية "نظرية الأجناس الأدبية" أو "التصنيف الأجناسي" للأدب من القضايا الجدلية في الخطاب النقدي القديم والحديث والمعاصر الغربي والعربي، بداية من الالتباس الذي شكلته مقولة "الجنس الأدبي"، مرورا بتتبع تطور الأشكال الإبداعية وأصالتها زمانيا ومكانيا عند الأدباء منذ نشأته بدراسة التحولات التي مر بها وتوالدها من بعضها البعض، وصولا الى إشكالية الأسس التي تُضبط بها هوية النصوص التجنيسية، وهذه الأخيرة تعد من أهم القضايا والإشكالات إلحاحا في "نظرية الأجناس الأدبية"، ما حتّم توسيع دائرة البحث النظري ضمن الخطاب النقدي والممارسة النقدية المعاصرة العربية.

- مسألة الأجناس من أهم المسائل التي تهتم بها الدراسات الأدبية والشعرية منذ القدم، على الرغم من وجود أصوات مشككة في جدواها القائمة على فكرة تكسير الحدود بين الأجناس الأدبية ورفض ومعارضة كل محاولات التصنيف التي عاشت عليها الآداب منذ القدم.

- كل أدب وكل ثقافة بحاجة ماسة إلى تنظيم خطاباتها الأدبية وصوغ هوية تجنيسية فاصلة لها تبين انتماءها باستصفاء الملامح المهيمنة التي تشترك وتجمع بين مكوناته لتكون الجنس الأدبي، لأن المدخل النظري للآداب العالمية يعنى دائما بحصر الخصائص وتبيان القواعد بهدف تنظيم الأبنية وضبط الأساليب، وهو يفضي إلى البحث عن معايير تستخلص من النصوص المتقاربة ثم تجرد لتصبح مبادئ عامة مميزة للأجناس.

- إن موضوع أو إشكالية التصنيف الأجناسي - على أهميته والتصاقه بشتى القضايا التي تنبثق عنه- لم يلق في الدراسات العربية المتعلقة ببحث الأجناس الأدبية من العناية ما تلقاه سائر القضايا ذات الصلة بالبحث، خاصة وأن هناك نصوصا في الأدب العربي لا تشاركها فيها الآداب الأخرى.

- دراسة التصنيف الأجناسي قد لا يقدم صورة ثابتة عن واقع أجناس الأدب، ولكنه يقدم الوجه الذي يستقيم معه تمثيل الأصناف الأدبية في إطار أنظمة تراتبية، وبيان موقع كل جنس أو نوع من الآخر ومنزلته منه مما يفضي إلى إبراز العلاقات بين مختلف الحساسيات الأجناسية.

وأخيرا ، إن نظرية الأجناس الأدبية تولي مفهوم الصيرورة والتحول قيمة وأهمية ، فهي بالأساس بحث في الأصول والعوامل المسؤولة عن تطور الأدب، كما أنها ليست مكونا تنظيميا فحسب بل أصبحت مكونا جماليا معرفيا، فالجنس الأدبي مكون أساسي في الإدراك المعرفي لدى الفرد والجماعة وكأنه جزء لا ينفصل عن العناصر المعرفية الجوهرية الأخرى التي يصل إليها الإنسان بفطرته، وبصفة عامة لا وجود لأدب بدون أجناس أدبية.

ويقتضي المقام الاعتراف بأن الناقدة نجحت إلى حد بعيد في تحليلاتها وتأملاتها النقدية والفكرية بتبنيها لآراء وتصورات أهم أعلام نظرية الأجناس الأدبية.